يوم وداع

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب عبد الحليم العشري

« فتى وفتاة فى سن الشباب يسيران جنبا إلى جنب فى شارع مقفر موحش ، وفى يوم من أيام الشتاء التى تحمل معنى الشتاء »

* * *

الفتاة — كم هو قبيح هذا اليوم ! جو رطب مشبع بالضباب ، سماء ملبدة بالغيوم تنبئ بمطر قريب ، صمت ووحشة ، ترى لماذا استدعيتنى فى مثل هذا اليوم يا حبيبى ؟ !

الفتى — حسبتك أحسست ...

الفتاة — (فى خوف وهى تلتفت إليه) ماذا تقصد ؟

الفتى — (يهم بان يتكلم ثم يتردد ويطبق فمه ثانية)

الفتاة — لماذا لم تجب ؟

الفتى — إنى خائف ...

الفتاة — م ... ؟

الفتى — عليك ... على قلبك ...

الفتاة — (فى حدة) إنى لا أفهم كلامك ، ليس هكذا كنت تكلمنى ...

الفتى — يؤسفنى هذا ... ولكن يجب أن تعذرينى . فانى ... فانى ...

الفتاة — قل ما ستقول ... إنى لا أرتاح لهذا التردد ...

الفتى — ولكنى خائف ...

الفتاة — (ثائرة) تخاف ... أتكررها للمرة الثانية ؟ إنى لا أفهمك ، لقد تغيرت كثيراً يا صاحبى

الفتى — يؤسفنى هذا أيضاً و ...

الفتاة — ويجب أن تصمت إذا كنت تريد أن تجعل كل كلامك على هذه الوتيرة ...

الفتى — (فى حيرة) لو عرفت ما بى لما قلت هذا الكلام ، ولما ثرت هذه الثورة ...

الفتاة — (تتكلف الهدوء) وما بك يا عزيزى ..؟

الفتى — إنى خائف ...

الفتاة — (فى صوت متفعل) قلت لك تكلم كلاماً مفهوماً . إنك تخلع قلبى ...

الفتى — يؤسفنى هذا أيضاً ... و ...

الفتاة — (فى صوت متفعل أيضا) أف منك ! إنك تغيرت كثيراً جداً ...

الفتى — (فى حيرة) قد أكون تغيرت حقاً ، ولكن يجب أن تهدئى من ثائرتك بعض الشىء ، إن ما بى فيه الكفاية ...

الفتاة — وماذا بك ؟ ليتك تجيب هذه المرة ..

الفتى — (فى عزم وهو يستجمع قوته) أجل سأجيب ... إنى ... إنى ... إنى ...

الفتاة — إنك .. إنك .. إنك ، إنك ماذا ؟ لقد أصبح من الواجب عليك أن تصمت ...

الفتى — لقد كنت أود هذا ، لولا أنه من الضرورى أن أتكلم ...

الفتاة — حسن . تشدد يا عزيزى هذه المرة أيضاً وحاول أن تتكلم ...

الفتى — (فى عزم وهو يستجمع قوته) أجل سأتكلم هذه المرة ، إنى ... إنى استدعيتك لأقول لك ... لأقول لك ... لأقول لك ...

الفتاة — (براقو) . لقد زدت على كلامك السابق ثلاث كلمات ، حاول أيضاً حاول بقوة ...

الفتى — إنى استدعيتك لأقول لك كلمة واحدة

الفتاة — وما هى أيها الحبيب ... ؟

الفتى — هى ... هى ... إنى خائف ...

الفتاة — خائف .. خائف .. يا صاحبى يجب أن تنزع عنك هذا الخوف ...

الفتى — يخيل إلى أنى لا أستطيع ذلك

الفتاة — بل تستطيعه بقليل من العزم . هيا .. هيا قل كلمتك ...

الفتى — (يتلع ريقه ويحاول أن ينزع عنه خوفه)

الفتاة — كن قوياً ...

الفتى — كلمتى هى ... (يتردد)

الفتاة — كن قوياً تشجع ...

الفتى — هى ... (يتردد)

الفتاة — (ضاحكة) إن صبرى فرغ .. بودى لو أصفعك ...

الفتى — (فى جد وهو يقدم لها خده) أوه هذا قليل والله اصفعى ...

الفتاة — (ضاحكة) إنك بطل ...

الفتى — تكذبين . فأنا والله أضعف خلق الله اليوم ...

الفتاة — دع هذا . ما هى كلمتك ...

الفتى — أجل كلمتى . يالله ... لو أتمكن من إخراجها من فمى ...

الفتاة — (ساخرة ضاحكة) هل تستطيع القبلة إخراجها ؟

الفتى — بل هى تمنعها أكثر من الخروج

الفتاة — (متصنعة الجد) يا لها من كلمة !

الفتى — نعم، يا لها من كلمة. إنها الحد الفاصل بين حياتين ، بين قلبين .. بين ..

الفتاة — (هالعة) اصمت. اصمت إنك تؤذينى

الفتى — ألم أقل لك ...

الفتاة — بل تكلم ... قل كلمتك ...

الفتى — لا ...

الفتاة — (تنظر إليه فى خوف)

الفتى — الود ...

الفتاة — (تنظر إليه فى خوف)

الفتى — الوداع . أشهد أن لا إله إلا الله ، هذه هى الكلمة التى استدعيتك لأقولها لك ...

الفتاة — (تنظر إليه فى دهش ورعب)

الفتى — (فى حزن) ألم أقل لك . ألم أقل لك الذنب ذنبك ...

الفتاة — إنى . إنى لا أفهمك ...

الفتى — وهذا ما اعتقدته ، ولكن حاولى ، حاولى أن تفهمينى ...

الفتاة — سأحاول ... وضح مرماك ...

الفتى — إذن سأكرر كلمتى أترينى أستطيع ؟

والفتاة — ...

الفتى — ولكن يجب أن أستطيع (يشدد) إستدعيتك لأودعك ...

الفتاة — (كأنها تحلم) إستدعيتنى لتودعنى ...

إستدعيتنى لـ... (تقطع كلامها وتلتفت إليه جادة) هل تعنى أننا سنفترق ... ؟

الفتى — هو ذاك ...

(صمت)

الفتاة — (بعد قليل) يخيل إلى أنى لست معك حقيقة . فهل ترانى أحلم ...

الفتى — بل أنت معى ...

الفتاة — إذن فأنت تهذى ، تسخر ...

الفتى — ولا هذا ...

الفتاة — ولكن كلامك ...

الفتى — ولكن كلامى يدعو للشك . هذا ما أوافقك عليه ...

(صمت)

الفتى — (بعد بضع دقائق) هل كنت تحبيننى يا عزيزتى ؟

الفتاة — (غضبانة وهى تكاد تبكى) ألم تعرف ذلك بعد ؟ أتتناسى الماضى ... يا لحظى العاثر ؟

الفتى — لا تغضبى . اعذرينى . إنى مخطئ . ولكن ... ولكن ...

(يصمت و تصمت)

الفتاة — « بعد هنيهة » ولماذا تودعنى ياعزيزى ... ؟

الفتى — هذا أمر يحتاج إلى شرح طويل ... وأخاف عليك من برودة الجو إذا طال بنا المسير وأنا أشرحه لك ...

الفتاة — لا تخف . فانى أحس الآن حرارة فى الجو ، يخيل إلى أن برودته زالت ...

الفتى — « مغمغما » هذا كلامى الأليم فى نفسك ... والحقيقة أن الجو لا يزال على برودته ...

الفتاة — على أى حال ... يجب أن تخبرنى بكل شىء الآن وعلى أنا تحمل تبعة ما يحدث إذا طال مسيرنا ...

الفتى — ولكن يا عزيزتى ...

الفتاة — « مقاطعة » اسمع كلامى ...

الفتى — حسن . سأخبرك بكل شىء ... « يتردد »

الفتاة — قل . قل . لا تكن بطيئاً هكذا فى إخراج الكلام من فيك ...

الفتى — الحق أن الأمر يؤلمنى . ولكن ماحيلتى سأقول . سأقول كل شىء فاسمعى .

الفتاة — إنى منصتة إليك بكليتى ...

الفتى — إن لى ابنة عم تحبنى حباً لا غاية بعده ، كنت أحبها قبل أن أعرفك وأعدها زوجتى المقبلة وتعدنى زوجها المقبل . هذه ابنة العم هى السبب فى أنى سأودعك اليوم . قولى لم . لأنها كادت تقتل نفسها حينما علمت أنى متصل بك . كانت ستشرب السم لو لم ننقذها فى اللحظة الأخيرة . إنها مسكينة هذه الفتاة ، وبعد أن خلصناها من الموت التفتت إلى تقول فى صوت كله إصرار « لملك عرفت الآن كم أحبك .. فعليك أن تعرف أيضاً أنى سأعاود ما كنت أريد أن أفعله بنفسى إذا لم تقطع علاقتك بتلك الفتاة التى شغلتك عنى » . تخفت يا عزيزتى . خفت عليها من الموت فقد وجدتنى لا أزال أحبها .. أجل وعلى الرغم من أنى أحبك . وقلت فى نفسى إن قتل قلب ليس كقتل نفس ، وعزمت — وكلى

ألم وحزن وأسف — على قتل القلب الذى ستحيا بموته هذه النفس البائسة

الفتاة — ولذلك استدعيتنى ؟

الفتى — أجل ...

الفتاة — (تضحك فى تكلف والدمع يتحدر من عينيها على خديها) واخترت هذا الشارع المقفر الذى لا يكاد يرى فيه رجل من رجال الشرطة ، أو حتى بعض الناس ؟

الفتى — لقد يكون . ولكنى على كل حال لن أخاف من القبض على متلبساً بجريمتى ...

الفتاة — يا لك من مجرم شجاع ...

الفتى — ليس هذا وقت هـذه السخرية . خبرينى هل تعفين عنى ..؟

الفتاة — لا أدرى . ربما ...

الفتى — هذا مؤلم . كنت أطمع فى عفوك ...

الفتاة — سأحاول أن أعفو عنك . فقط بعد أن تقوم بجريمتك ... « صمت »

الفتاة — (بعد قليل عائدة إلى سخريتها) ولـكن خبرنى أى سلاح ستستعمله فى قتل قلبى المسكين . إنى أفضـل البندقة لأنها تقتل بسرعة فلا يتألم المقتول بها إلا مرة واحدة ...

الفتى — ما زلت على سخريتك . ترى هل تقدرين موقفك الآن ؟

الفتاة — (تفيق قليلا قليلا وتنظر إليه نظرة من أخطأ) إنى آسفة لقد خيـل إلى أنى أستطيع الترفيه عن نفسينا بهذا الـكلام .. (صمت)

الفتاة — (بعد قليل) وإذن سنفترق حقاً . ؟

الفتى — ألم تصدقى بعد كل هذا ... (صمت)

الفتى — (يقطع الصمت) إن أيام الحب تمر حالمًا كالأحلام ، وما أكثر من يشقون بالحب بعد أن تمر أيامه هذه التى كالأحلام ...

الفتاة — ...

الفتى — لقد فكرت حينما استدعيتك اليوم فى حبنا الكبير الذى سيموت ، فكنت أعجب هل يمكن أن يموت حقاً وهو فى ربيعه ...

الفتاة — ...

الفتى — وفكرت أيضاً فى قلبك الذى سيقتل... فعجبت هل يمكن أن يقتل قلب يحيا بحياتين ... حياة الحب ... وحياته هو ؟

الفتاة — .....

الفتى — وفكرت أخيراً فى أمر هذه الدنيا ، التى تأبى أن تبقى للسعيد سعادته بينما يكون فى أشد الحاجة إليها . فرحت ألمسها وألمسها

الفتاة — .....

الفتى — وحينما انتهيت من تفكيرى ثرت على نفسى لأنها كانت السبب الأول فى كل هذا

الفتاة — .....

الفتى — وطمعت فى غفرانك . ولكن يظهر أننى لن أناله ...

الفتاة — (تفارق الصمت) ولم لا تناله ؟ إنك مجبر فيما تفعل . سوف أغفر لك يا صاحبى ... بل ليغفر لك الله ...

الفتى — (بفرح) الآن أنا سعيد . وسوف أقوم بما استدعيتك من أجله . ولـكن دعينا أولا

نعيش لحظة فى جو حبنا ... لحظة أخيرة ...

الفتاة — كلا ...

الفتى — عجيب . ولكن لا يجب أن نفترق هكذا . على الأقل يجب أن أقبلك ...

الفتاة — كلا ان تقبلنى (تستدرك) بل قبلنى عشر قبلات على ذكراها تساعدنى على الحياة عشر سنوات

الفتى — وبعد عشر السنوات ؟

الفتاة — أوه، سأشكر الله لو استطعت أن أعيش عشر سنوات ...

الفتى — إنك تزعجينى . بل سيطول بك العمر أكثر باذن الله ... وهانى الآن فمك ...

الفتاة — كلا ليس بهذه السرعة . يجب أن نجلس أولا فى مكان بعيد عن العيون إذا كانت هناك عيون ، لا تنس أننا فى شارع ...

الفتى — حسن . بعد خطوات سنصل إلى حديقة صغيرة على جانب الشارع يمكننا أن نجلس بين أشجارها فلا يرانا أحد ...

(يوسعان الخطى نحو الحديقة والصمت يسودهما)

الفتى — (بعد أن جلس بجوار الفتاة على أحد المقاعد المختفية عن الأنظار بالحديقة التى قصداها) : والآن هل يمكنك أن تتفضلى باعطائى فمك ؟

الفتاة — (باسمة وهى تقرب منه فمها) بالطبع . ها هو ذا يا عزيزى ... فلتطبع عليه عشر قبلات كاملة طويلة ...

الفتى — (وهو يهم بتقبيلها) ولتنس كل شىء الساعة

الفتاة — (ضاحكة) ولكن حذار أن تنتهز هذه الفرصة فتقتل قلبى .

الفتى — (فى استعطاف) أرجوك ، دعى هذا الآن وإلا أفسدت جو هذه اللحظة (يقبلها)

الفتى — (بعد أن قبلها عشر قبلات) انتهت القبلات العشر ... (يريد أن يبعد فمه عن فمها فتثبت برقبته وتدنى فمها من فمه ثانية)

الفتاة — قبلنى أيضاً . اعطنى على العشر قبلة (تبتسم) أو نصف قبلة إذا كانت القبلة كثيرة (يقبلها)

الفتى — (وهو يعتدل فى جلسته بعد أن قبلها) ، والآن ...

الفتاة — أ ... أقتل قلبى ...

الفتى — (يستمر فى قول ما كان سيقوله) والآن دعينا نستعد شيئاً من ذكريات حبنا

الفتاة — (صمتت فى تفكير ثم تبتسم وهى تجالب دموعها) حسن . هل تذكر يوم كنا نسير بجوار إحدى الترع الصغيرة بقرية (المنصورية) وأنت تقرأ لى شعراً منثوراً قلت لى إننى أنا التى أوحيت به إليك، فلما أخذت منك الجاسة ما خذها وأنت تتلوه زلت قدمك فسقطت فى الترعة ، وطارت الورقة التى كتبت فيها شعرك فى الهواء

الفتى — أوه، أذكر هذا جيداً، ولقد خاصمتك يومى لأنى عندما خرجت من ماء الترعة ظللت تضحكين على طول الطريق ...

الفتاة — وهل تذكر يوم جئتنى من أجل لتقبلنى قبلة . قلت لى يومها إنها ستكون : « فتحاً جديداً فى عالم القبلات »

الفتى — أذكر هذا تماماً ...

الفتاة — وهل تذكر يوم (ترصني) في أذني شدة جعلتني أصرخ من الألم حينما طلبت منك أن تعطيني درساً في قواعد اللغة العربية . فلم أفقه مما تقول شيئاً ...

الفتى — أجل أجل . وأعتقد الآن أني كنت قاسياً على أذنك يومذاك . فلقد احمرت من أثر (الرصة)

الفتاة — وهل تذكرت يوم مثلت معي دور الزوج ، ومثلت معك دور الزوجة (تبسمت هنيهة وهي تهمس في تحسر وحنين) حينما كنت تأمرني أن أفعل كذا ، أو أترك كذا ، فاذا رفضت اتخذت هيئة الزوج الغضبان على زوجته وهددتني بالضرب أو الطلاق

الفتى — (يبتسم في تحسر ولا يجيب)

الفتاة — (تهم بأن تستمر في ذكرياتها ثم تتردد فجأة) يحسبك هذه الذكريات ، هيا اقتل قلبي الآن

الفتى — (يتأهب) حسن . (يقف) . الوداع .

الفتاة — (صارخة في ضراعة) كلا . . كلا . . انتظر ...

الفتى — لقد طال الانتظار يا عزيزتي ...

الفتاة — لحظة أخرى ...

الفتى — كلا ... ولنفترق ونحن على أحسن ما نكون من الصفاء . . . إذا كان ما بيننا الآن صفاء ... وداعاً ...

الفتاة — آه ... قلبي ...

الفتى — قتيل ؟ أليس كذلك ؟ حسن . الذنب ذنبك فأنت التي طلبت الاسراع في قتله (يتلمس ريقه) ولكن يجب أن تعرفي أن قلبي هو الآخر قتيل . أو كما هو الواقع قتلت منه قطعة ، والرصاصة التي قتلت قلبك وقتلت تلك القطعة من قلبي واحدة ... (للمرة الثالثة) الوداع . سوف تذكرينني بخير . أليس كذلك ؟ كلا ، بل انتصابي ...

الفتاة — (في غير وعي وهي تضم إلى صدرها اليد التي قبلها وبصرها تائه) وداعاً ... وداعاً ياحبيبي (تردد للمرة الثانية وهي ذاهلة ساهمة) . ياحبيبي .

(الفتى يهم بأن يسير ثم يلتفت إليها فجأة)

(يتقدم إليها ويتناول يدها ليقبلها)

الفتاة — (تمنعه من تقبيل يدها) بل انتظر حتى أقف لأودعك بدوري ...

الفتى — لا . إنك لن تستطيعي الوقوف وما زال الثقب الذي أحدثته في قلبك الرصاصة التي أطلقتها عليه ينبثق منه الدم . ودعيني وأنت جالسة

الفتاة — (دهشة وكأنها أفاقت من غيبوبة) إذن ستفترق ؟!

الفتى — (مندهشا) إلى الآن لم تصدقي ؟ عجباً !

الفتاة — (ساهمة ذاهلة وهي تعطيه يدها) حسن قبل يدي . (يقبل يدها)

الفتى — وداعاً ...

الفتاة — (في غير وعي وهي تضم إلى صدرها اليد التي قبلها وبصرها تائه) وداعاً ... وداعاً يا حبيبي (تردد للمرة الثانية وهي ذاهلة ساهمة) ... يا حبيبي ... (الفتى يهم بأن يسير ثم يلتفت إليها فجأة)

الفتى — كلا (يا حبيبتي) لا تقولي يا حبيبي

الفتاة — (وهي تبتسم والدمع على خديها يتلألأ) وأنت أيضاً ياحبيبي لا تقل يا حبيبتي !

عبد الحليم لحرز العشيري